المعرفة الصوفية إشكالية القراءة ومعضلة الفهم

بوسماحة الطيب

اشراف أ.د: كرّوم بومدين

كلية الآداب واللغات

جامعة تلمسان

الملخص:

المعرفة بخصائصها الأساسية لا تتحقق وظيفتها في الفن إلا عبر المفاهيم، والمعرفة الصوفية من المسائل الرئيسية التي انبنى عليها الخطاب الصوفي العرفاني، باعتبار هذه المعرفة هي المقصد، والمبتغى الذي يسعى إليه كل صوفي في رحلته ومعراجه، ولأن هذه المعرفة معرفة كشفية خارجة عن طور العقل، فإن العارف في التعبير عنها كان متخذا الرمز والإشارة أسلوبا ممكنا لإيصال هذه المعرفة، وهذا ما زاد في غموض هذه المعرفة. حتى أصبح أصحابها يشترطون التسليم إن لم يكن قارئ هذه المعرفة من أصحاب التجربة الصوفية، التي هي وحدها السبيل إلى ذوق هذه المعرفة واستيعابها.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب – المعرفة – المحبة – القراءة – التجلي – التجلي – التحلي – التصوف – الفناء.

Summary:

Knowledge with its basic characteristics does not put its function in art only through the relevant concepts and the knowledge of mysticism that it is constructed in this respect. Therefore, this knowledge is the target and the objective of Sophie who sought for a spiritual journey. This is because this knowledge transcends the rational and logical thinking of the mind, the Sophie adopted the symbolism style. Thus, this spiritual mode of behavior does not realize unless it you live such way of thinking that is adopted from and only the experience lived by the Sophists.

Key-words:

Discourse- knowledge- Love- Sophism –Mysticism- fatality and death

يعد النّص الصوفي العرفاني من أعقد النصوص على مستوى القراءة والفهم، ذلك أنّ أصحاب هذا الفن بأنفسهم يعترفون أنّهم يكتبون من معين يختلف كل

الاختلاف عن معين النصوص المعتادة سواء كانت نصوصا أدبية، أم فلسفية، أم علمية.

فعبد الكريم الجيلي (767-832 هـ)، مثلا يبيّن في الكثير من مصنفاته أن الكتابة مصدرها الإذن الإلهي والكشف الرباني؛ ففي مقدمة كتابه (الإنسان الكامل) يصرح أن تأليفه له كان بأمر من الحق فيقول: "فأمرني الحق الآن بإبرازه بين تصريحه وألغازه، ووعدني بعموم الانتفاع. فقلت طوعاً للأمر المطاع. وابتدأت في تأليفه متكلاً على الحق في تعريفه" (1).

المعين الذي كتب به النّص الصوفي العرفاني هو معين متعالٍ لا ينتمي إلى عالم الّلغة التي كتبت هذا النّص في جوهره ومعناه، فاللغة عند العرفاني لابدّ أن تكون بين الألغاز والتصريح، وهي وسيلة لا يملك العارف غيرها في توصيل ما أراده، أو تبيين ما ذاقه، أو إيضاح ما تجلى له من معارف وكشوفات، وفي هذا يقول ابن عربي "إن الحقّ تعالى الذي نأخُذ العلوم عنه بخلوّ القلب عن الفكر، والاستعداد لقبول الواردات، هو الذي يعطينا الأمر على أصله من غير إجمال ولا حيرة فتعرف الحقائق على ما هي عليه"(2).

وتعد الكتابة الصوفية العرفانية -انطلاقا من هذا التعالي- كتابة إيضاحية وإيهامية في الوقت نفسه، ولهذا أوقعت على مستوى القراءة والتلقي الدهشة والحيرة والسخرية أيضا.

والتاريخ يثبت أنّ تلقي النّص الصوفي العرفاني كانت له عواقب وخيمة وانعكاسات خطيرة، كان لها الأثر القوي في حركة هذا النّص بعد ذلك.

والذي حدَث للحلاج أبو منصور خير دليل على خطورة هذا المقول العرفاني؛ فمن المعروف أن الحلاج كان ضحيّة أولئك الذي تلقوا كلامه بالرفض، فأدى ذلك إلى التكفير ثم القتل، فالحلاج "صدع بآرائه الصوفية الجريئة، وأعلن شطحاته، ومواجيده على الملأ بلا وجل رغم خروجها عن مألوف العقائد الدينية والنواميس الاجتماعية، فتواطأ معظم الفقهاء على قتله... فانتهت تجربته المأسوية بصلبه وتعذيبه، وتقطيع أعضائه، وتحريق جثته"(3). وهذا كان كافيا لأصحاب هذا النوع من الكتابة بضرورة التوجه إلى الكتابة الغامضة والرامزة، مما زاد في صعوبة التلقي والقراءة، والفهم، ومن هنا سَموا أنفسهم أهل الإشارة.

ومن المعروف أن المقول العرفاني هو وليد تجربة فردية عاشها الصوفي نتيجة مجاهدات سلوكية وقلبية أوصلته إلى معرفة ما لا يعرف، ومعرفة ما لا يفصح عن معرفته، ومعرفة مالا يستطاع السكوت عنه في معرفته.

مفهوم المعرفة في العرفان الصوفي:

تعد المعرفة التي يقصدها الصوفي غاية ما يسعى إليه في رحلته الشاقة التي أساسها المجاهدة والمكابدة، والقلب هو آلة هذه المعرفة "فإذا سلم القلب من علم النظر الفكري شرعاً وعقلا كان أميّا، وكان قابلا للفتح الإلهي على أكمل ما يكون بسرعة دون بطء. ويرزق

من العلم اللدني في كل شيء ما لا يعرف قدر ذلك إلا نبيٌّ أو من ذاقه من الأولياء"(4).

ومن هذا المنطلق، فإنّ المعرفة مسألة ذوقية يعرف من خلالها العارف الأمور على ما هي عليه حقيقة، وإدراك حقائق الوجود على ما هي عليه هو في الحقيقة إدراك لذات الإنسان، وإدراك ذات الإنسان ومعرفتها هو في الحقيقة معرفة لله تعالى.

وينطلق النّص العرفاني الصوفي في تحديد هذه المعرفة والدعوة إليها من الأثر المشهور "من عرف نفسه عرف ربّه"(5). وهذه المعرفة عبارة عن تجلي الأنوار الإلهية على العبد الذي يصبح من خلالها مدركا للحقائق على ما هي عليه، وتلك هي معرفة النفس التي تؤدي إلى معرفة الرب وما هي إلا "أن تشاهد الأنوار منفهقة منك يتنور بذاتك عالم سماواتك وأرضك، فما تحتاج إلى نور غريب تستضيء به، فأنت المصباح والفتيلة والمشكاة والزجاجة، وإذا عرفت هذا عرفت الزيت، وهو الإمداد الإلهي، وعرفت الشجرة، وإذا كانت الزجاجة كالكوكب الدري وهو الشمس هنا، فما ظنك بالمصباح الذي هو عين ذاتك"(6).

المعرفة والإنسان في النّص العرفاني:

لقد مرّ بنا أن معرفة الإنسان لنفسه مؤدية إلى معرفة الإنسان لربّه "فإن العارف إذا عرف نفسه أنها جوهر مجرد قائم بذاته موصوف بالصفات الإلهية، منعوت بالنعوت الربانية، ظاهر في صور جميع الموجودات علويها وسفليها، ويظهر له ربّه، فيعرف من ربّه الذي هو اسم من أسماء الإله الذي إليه المرجع والمآب"(7).

ولقد أخذ الإنسان مكانة مرموقة عالية في الفكر العرفاني مما يجعل هذا الخطاب يصلح أن يكون خطابا إنسانيا بناء على وحدة الأصل، ووحدة المبتغى، ووحدة الحقيقة، وجمال الصورة. فالإنسان عند ابن عربي هو وحده من خلق على الصورة الإلهية في ظاهره وباطنه"(8)، أما الجيلي فيرى أن الإنسان هو الذي تمت به مراتب الوجود كلّها ولهذا استحق الحقائق كلّها "فالإنسان أنزل الموجودات مرتبة، وأعلاها مرتبة في الكمالات فليس لغيره ذلك.، وأنّه الجامع للحقائق الحقية والحقائق الخلقية جملة وتفصيلا... وكلّما رأيته أو سمعته في الخارج فهو عبارة عن رقيقة من رقائق الإنسان أو اسم لحقيقة من حقائقه"(9).

وتشير النصوص العرفانية في الكثير من التآليف إلى حديث الكنزية"(10). حتى أصبح هذا الأثر منطلقا أساسيا في إثبات المعرفة باعتبارها الأصل في وجود العالَم، وهذا الحديث عند الصوفية صحيح كشفا وإن كان ضعيف الإسناد وراية وسنداً، وفي هذا يقول الجيلي: "هذا حديث صحيح من طريق الكشف. وضعيف من طريق الإسناد. قد أجمع المحققون على صحته، وذكره غير واحد منهم في مصنفاته"(11).

وخَلْقُ العالم بهذا الاعتبار كان بقصدية المعرفة، فالله ما أوجد الكون الّا ليعرفه. "وإن من شيء إلّا يسبح بحمده"(12). والإنسان هو المقصود الأول والأخير من هذه المعرفة، وهي مطلبه وحقيقته لأنه العالَم الأصغر

الجامع لحقائق العالَم الأكبر "وفيه من الأنوار المعنوية والحسيّة والزجاجية ما فيه ممّا لا تجده في غيره من المولدات بما أعطاه الله من القوى الروحانية فما قبلها إلّا بالنورية التي فيه"(13).

وإذا كانت المعرفة بهذا التأصيل غاية الغايات، فإنّ الخطاب العرفاني رسم لهذه الغاية طريقا يتبعها الصوفي في رحلته كي يتحقق بهذه المعرفة؛ ومن أهم قواعد هذه الطريق ما يسمى بثنائية الشيخ والمريد وثلاثية التخلي والتحلي والتجلي.

ثنائية الشيخ والمريد في الخطاب العرفاني:

الشيخ في المصطلح الصوفي هو ذلك السالك الذي قطع الطريق إلى مولاه، ونجح في فطم نفسه عن جميع الشهوات والملذات والمتعلقات التي تبعده عن حبيبه ومولاه، ووصل إلى معبوده فاصطفاه، وصلح لأن يكون طبيبا مداويا لمن أراد أن يحقق مبتغاه من المريدين والسالكين، والشيخ عند الكاشاني "هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد التكميل فيها، لعلمه بآفات النفوس، وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بذواتها، وقدرته على شفائها، والقيام بهداها، إن استعدت ووفقت لاهتدائها"(14).

والشيخ بهذا التعريف إنسان كامل ومكمِّل، كامل في المعرفة، ومكمِّل لمريدي المعرفة. وهو السالك الواصل المسلِّك للسالك؛ فهو بهذا المربي الذي "انكشفت له طرق النجاة فسلك عليها، ثم أذن له بالتسليك والدعاء إليها"(15).

أمّا المريد فهو المريض وهو الرضيع الذي وضع نفسه بيد شيخه ليربيه كما يربى الرضيع بين أحضان أمه، أو المريض الذي وضع نفسه أيضا بين يدي شيخه ليداويه من أمراض نفسه، ورعونات طبعه. والمريد على حسب ابن عجيبة له ثلاث مراتب: "مريد له إرادة التبرك وهو لأصحاب الهمم الضعيفة، ومريد له إرادة الحضرة، وهو لأصحاب التجريد، ومريد له إرادة الكمال والمعرفة وهو لأصحاب الكمال والمعرفة"(16).

والعلاقة بين الشيخ والمريد هي علاقة واصل بسالك، أو علاقة عارف بباحث، أو علاقة شاهد بقاصد. وهي علاقة مبنية على التسليم والانقياد والمتابعة والمجاهدة والمكابدة وبدايتها التخلي، ووسطها التحلي، ونهايتها التجلي.

ثلاثية التخلي والتحلي والتجلي:

إن المتتبع لثنائية الشيخ والمريد وفق النّص العرفاني يجدها مبنية على ثلاثية التخلي والتحلي والتجلي، وهي ثلاثية تحدد المنطلق والسير والوصول، وعبر هذه الرحلة تتكون المعرفة.

إن عملية التخلي في المصطلح الصوفي هي عملية معقدة وشاقة تنبني على جهد مضن، وهمة عالية، يقوم بها المريد من أجل تصفية الباطن من جميع ما يبعده عن عبادة الله المقصود بالمعرفة، فهذه العملية هي الأساس التي من غيرها لا يطمع السالك في الوصول إلى المعرفة، وهي مبنية على كثير من الأعمال القلبية كالتوبة والصدق والصبر والشوق......." والحازم اللبيب،

والعارف المصيب، إذا ابتدأ في هذا الأمر، وأخذ في خوض هذا البحر، لا يلتفت إلى وعر المسالك، ولا يبالي بما يظهر من المهالك"(17).

إن النجاح في عملية التخلي هو إيذان للسالك في الدخول إلى مرحلة التحلي، فلا تحلي من دون تخل، والتحلي شرطه التخلي، وفي هذا المستوى تتحلى نفس السالك بالصفات المحمودة لأنها تخلت عن جميع الصفات المذمومة، ولهذا جاء تعريف التحلي عند ابن عربي أنه "اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق... وهو التزيّن بالأسماء الإلهية على الحدّ المشروع"(18).

إن عملية الاستبدال، أو بعبارة أدق الإفراغ ثم الإملاء هو في الحقيقة يمثل المؤشر لدخول السالك إلى المرحلة الثالثة وهي التجلي وهو بداية المعرفة.

والتجلي في معناه اللغوي يحمل دلالة الظهور والانكشاف، وهذا ما نجده متداولا بكثرة في مؤلفات العرفان الصوفي في مثل مصطلحات التجليات الإلهية، والكشوفات الربانية حتى أصبحت عناوين لمؤلفات لها بريقها وقيمتها، ولها في منظور أصحابها نورَها وسرها، وهو "ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب"(19).

لقد تبيّن أنّ التجلي هو مؤشر المعرفة، وهي معرفة ذوقية مكانها وآلتها القلب المتخلي والمتحلي، ولا فسحة للعقل في إدراك هذه المعرفة "فكل علم لا يحصل إلاّ عن عمل وتقوى وسلوك فهو معرفة لأنه عن كشف محقق لا تدخله الشبه"(20).

مشروعية المعرفة الصوفية:

لقد حسم العرفان الصوفي مسألة المعرفة في كونها مسألة ذوقية متعالية عن كل معرفة أخرى، ولهذا نلاحظ أن العارف في دفاعه عن هذه المعرفة ومحاولة التدليل على صحتها وضرورتها، يركز على ضرورة خوض التجربة التي خاضها العارفون بالله حتى وصلوا إلى هذه المعرفة ذوقا وكشفا، ومن جملة الأدلة التي ارتكز عليها العرفان الصوفي في دفاعه عن المعرفة الصوفية ما يلي:

1. الدليل القرآني: ولعل من أبرز الآيات القرآنية الواردة في هذا الشأن قوله تعالى "واتقوا الله ويعلمكم الله"(21)، وهي آية تبرز أن التقوى وهي عمل قلبي وأساسها المجاهدة، شرط أساس لتحقيق العلم بالله، فالقلب المتقي، وهو المتخلي عن جميع الأغيار هو القلب الذي يصلح للتحلية بالمعارف الإلهية، وتلك هي المعرفة.

2. دليل القصص القرآني: إن لأصحاب النّص العرفاني في القصص القرآني دليلا بينا في حصول المعرفة الإلهامية، واستنادهم في هذا كان بارزا على قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وتعد هذه القصة مرجعا أساسيا ودليلا مهما ومقنعا؛ فالخضر بصريح الآية قد أوتي علماً لدُنيا، وهو العلم الذي لم يكن موجودا عند موسى عليه السلام، وفي هذه القصّة ما يبرر أن المعرفة الصوفية هي معرفة متعالية لا يفهمها إلا أصحاب الكشف والتجلي.

3. دليل الحديث النبوّي: لقد ارتكز العرفان الصوفي ارتكازاً قويّا على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ليس باعتباره صاحب رسالة سماوية فقط، وإنما باعتباره صاحب السّر الأعظم، والمكانة الكبرى، والواسطة العظمى لتحقيق أي معرفة بالله، وهذا ما اصطلح عليه عندهم بالحقيقة المحمدية. "فلولم يكن صلى الله عليه وسلم موجوداً لما كان شيء من الموجودات يعرف ربه، بل لم يكن العالم موجودا لأنّ الله ما أوجد العالم إلا لمعرفته"(22).

ومن أشهر النصوص النبوية التي تدوولت في تحقق المعرفة الإلهامية حديث: "كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"(23). وفيه إشارة إلى مقام التعليم الإلهي الذي يكرم الله به عباده المتجردين له حتى يصبح أسماعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويجري الله التأثير والتصريف على أيديهم، وفي هذه الدقيقة يقول الشعراني: "ها هنا نكتة عزيزة لا يدركها إلاّ الأكابر من أهل الكمال وهي: ألا يحجب هذا العبد بفيضه على الوجود عن رؤية عبوديته وافتقاره، بل لا يزال عارفا بغنى الألوهية، وفقر المألوه، وإن نسب القبض إليه"(24).

وللإشارة فإن الأدلة التي يسوقها الصوفيون في مشروعية المعرفة الذوقية كثيرة ومتداولة في جميع كتبهم تستحق البحث لا يسعه هذا المقال، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه المعرفة لا تزال محل إنكار ورفض، كان الدافع لأصحاب هذا النّص العرفاني في إيجاد قواعد أضحت شروطا لقراءته.

4. شروط تلقي النّص العرفاني: إن المعرفة العرفانية لا يستوعبها إلاّ ذائقوها، وأن الحقائق بعيدة عن الفهم إلّا عند من كاشفوها، وإن الكتابة والتعبير عنها هي أصعب ما واجه أهل هذه المعرفة، ولعل عبد الكريم الجيلي يعد أبرز من أشار إلى هذه القضية خاصة في مقدمات كتبه.

ففي مقدمة كتابه: (الإنسان الكامل) يشير إلى أن التعبير عن الحقائق ليس له من سبيل إلا الرمز والإشارة، فيقول: "وسأنبه على أسرار لم يضعها واضع علم في كتاب من أمر ما يتعلق بمعرفة الحق تعالى، ومعرفة العالم الملكي والملكوتي، موضحا به ألغاز الموجود، كاشفا به الرمز المعقود، سالكا في ذلك طريقة بين الكتم والإفشاء، مترجما به عن النثر والإنشاء، فليتأمل الناظر فيه كل التأمل، فمن المعاني ما لا يفهم إلا لغزا أو إشارة، فلو ذكر مصرحا لحال الفهم به عن محله إلى خلافه"(25).

وهو في هذا النّص يشير إلى محدودية اللغة ومطلقية المعرفة "فالصوفي يعرف وجه قلبه، عند استماع اللفظ أو قراءته لا إلى معاجم اللغة ومجازها، بل إلى الله تعالى، وينتظر أن يعلمه مالم يكن يعلم بمناسبة السماع أو القراءة"(26).

ويضع الجيلي شرط التسليم مقدمة لقراءة النصوص العرفانية "وفائدة التسليم هنا وترك الإنكار ألا يحرم الوصول إلى معرفة ذلك، فإن من أنكر شيئا من علمنا هذا حرم الوصول إليه مادام منكرا"(27).

ويربط الجيلي بين الكتابة والقراءة والفهم، أو بين الكاتب والقارئ، فالقارئ عنده لابد أن يكون عالي الهمة يملك الاستعداد الروحي لفهم المعاني والحقائق، فإذا كان الكاتب من أهل المعرفة الإلهية، فإن القارئ إما أن يكون من ذائقي هذه المعرفة فيقبلها من غير شك، أو هو من أهل التسليم فيقبلها من غير رد.

ويذهب الجيلي في مسألة القراءة والفهم إلى أبعد من ذلك حيث يرى أن القارئ صاحب الهمة العلِيّة في فهمه يعد هذا الفهم في حقه كشفا، قد يوصله إلى الكمال في المعرفة "فمن كان ذا عقل ذكي، وفهم عليّ، وإيمان قوي، يأخذ من كتبنا كل ما يأخذه وينال منها كل مقصده، ولقد رأيت في زماننا من الأجناس بلغوا بمطالعة كتب الحقيقة مبالغ الرجال، ونالوا منها مقاصد الآمال"(28).

إن عبد الكريم الجيلي، بهذا الإسهام في مقدماته حول القراءة والفهم يعد سابقا للنظريات الحديثة التي اهتمت بموضوع القراءة والتلقي والتأويل.

هوامش الدراسة:

[1] – عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي. الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الفكر للطباعة والنشر. لبنان. ص 6.

[2] – محي الدين بن عربي. الفتوحات المكية ج1. تقديم محمود مطرجي إشراف. مكتب البحوث والدراسات. دار الفكر. بيروت 1994. ص435.

[3] – محمد بن الطيب. وحدة الوجود في التصوف الإسلامي. دار الطليعة. بيروت لبنان. ط1 2008. ص60.

[4] – محي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. ج4. ص518.

[5] – رواه أبو نعيم في الحلية (208/10).

[6] – محي الدين بن عربي. الفتوحات. ج4. ص212.

[7] – داوود بن محمد القيصري. شرح تائية ابن القارض الكبرى. تحقيق أحمد فريد المزيدي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1. 2004. ص189.

[8] – انظر الفتوحات المكية. ج4. ص533.

[9] – عبد الكريم الجيلي. مراتب الوجود وحقيقة كل موجود. تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية. بيروت ط3. ص62.

[10] – الحديث هو "كنت كنزا مخفيا. فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق" رواه العجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (2014) طبعة دار الكتب العلمية.

[11] – عبد الكريم الجيلي. الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية. تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1. 2004. ص156.

[12] - الآية 44، سورة الإسراء.

1[3] – محي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. ج4. ص 523.

[14] – عبد الرزاق الكاشاني. معجم اصطلاحات الصوفية. تحقيق عبد العال شاهين. دار المنار. القاهرة ط1. 1992. ص172.

15 -. ماء العينين. نعت البدايات وتوصيف النهايات. دار الفكر. بيروت. ص69.

16 – انظر أحمد بن محمد بن عجيبة. معراج التشوق إلى حقائق التصوف. مكتبة أم القرى. القاهرة. ط1. 2002. ص31.

17 – عبد الكريم الجيلي. الإنسان الكامل. ص 36.

18 – محي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. ج4. ص 204.203.

19 – عبد المجيد الشرنوبي. شرح تائية السلوك إلى ملك الملوك لأحمد عرب الشرنوبي. منشورات دار الكتب العلمية. بيروت. ط1. 2002. ص69.

20 – محي الدين بن عربي. الفتوحات المكية. ج3. ص543.

21 – الآية 282 سورة البقرة.

22 – عبد الكريم الجيلي. الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية. ص20.

23 – رواه البخاري (2384.5).

24 – مصطفى بن كمال الدين البكري. السيوف الحداد في أعماق أهل الزندقة والإلحاد. تحقيق أحمد فريد المزيدي. دار الآفاق العربية. القاهرة. ط1. 2007. ص177.

25 – عبد الكريم الجيلي. الإنسان الكامل. ص8.

26 – سعاد الحكيم. إبداع الكتابة وكتابة الإبداع. دار البراق. بيروت. 2004. ص40.

27 – نفسه ص8.

28 – عبد الكريم الجيلي مراتب الوجود. وحقيقة كل موجود. تحقيق عاصم إبراهيم الكياني. منشورات دار الكتب العلمية. بيروت. ط3. 2008. ص39.